اشراق الهلال على الوادى

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

وقف ريثة الروم فوق أعلى حصن (بابليون) بجوار مدينة مصر العظيمة ، فنظر الى مادونه نحو الاهرام عابرا ببصره نهر النيل العظيم فذهب به الخيال إلى الماضى البعيد ، وهمت بنفسه سورة خفيفة من الشجن المبهم ، وكان الجو كله ممتلئا بالاشجان والمخاوف لما كانت الدولة تلقاه من جميع الانحاء من الغارات والاخطار ثم ، نظر إلى الشمال نحو مدينة الشمس العظيمة (أون (١)) حاضرة العلوم القديمة ومركز ثقافة الفراعنة ، غير أنها لم تكن عند ذلك إلا بقية ضئيلة من نفسها القديمة . ثم نظر إلى الكروم والبساتين التى تكتنف الحصن من شماله حتى تصله بمدينة (أون) فلاح له من بينها غبار ثائر وجرم متحرك . وما زال يحدق فى ذلك الغبار وقلبه مضطرب وعقله تساوره الذكريات ، والمخاوف تتوارد عليه سراعا . ثم صاح صيحة النذير فاجتمع حوله جنود الحصن الذين كانوا على مقربة منه يشتركون معه فى النظر إلى ذلك الغبار الثائر وما لاح تحته من اجرام متلاحقة متحركة نحو شاطىء نهر النيل . وكان الجنود الى ذلك الوقت لا يعرفون شيئا سوى ما يذيعه لهم قوادهم وأمراؤهم ، فجعلوا يذهبون مع الخيال مذاهب شتى ، فقائل منهم تلك

(١) هى مدينة (عين شمس) أو هليو بوليس المعروفة قديما

جنود من الفرس عادت لتنتقم من الهزيمة الطاحنة التى لحقت بدولتها على يد هرقل ملك الروم العظيم ، وقائل ان تلك قبائل البجة التى اعتادت العيث فى جنوب البلاد قد بلغت شمال الوادى لتهبط على ريفه فتسلب منه ما شاءت ثم تعود مسرعة قبل أن يستطيع الروم أن يجمعوا الجيوش للايقاع بها ، ثم قال قائل منهم ممن عركتهم الحروب « أين الفرس اليوم ؟ لقد صارت دولتهم فى يد جيوش عرب الصحراء كما صارت بلاد الشام . ولقد رأيت بنفسى جيش العرب يأخذ دمشق ويطرد الروم من مروج سوريا ، وليس من شك فى أن هذا الغبار قد أثارته حوافر خيولهم السريعة » .

وأتى عند هذه اللحظة قواد الروم عندما بلغهم الصخب واللغط فنظروا حيث نظر الجنود ، ثم نظر بعضهم الى بعض نظرات صامتة فى وجوه مصفرة ثم قال (جورج) كبيرهم للجنود : « هلم أيها الجنود الى أماكنكم فليس من المباح لكم أن تقفوا الى جوار الريثة تشغلونه عن حراسته » فانصرف الجنود طائعين وقلوبهم غير راضية وعقولهم غير مطمئنة ، ثم مضى القواد الى ناحية من سور الحصن وجعلوا ينظرون الى الاشباح المتحركة والغبار الثائر فى ضوء الغروب الخافت .

ثم قال (جورج) القائد الأعلى للحصن « أيمكن أن يكون هؤلاء العرب قد غلبوا جنود الدولة التى أرسلت اليهم وبلغوا هذه الجهات فى شهر واحد ؟ وماذا فعل (إريطبون(١)) ؟ وماذا فعل تيودور(٢) ؟ » ، فقال أحد القواد ، وكان أقربهم اليه : « لقد شهدت حرب هؤلاء فى مواطن كثيرة ، إنهم يخرجون اليك كأنهم سراب الصحراء لاتدرى من أين جاءوا ، ثم تراهم ينصرفون عنك حتى لاتسمع عنهم شيئا فكأنهم غاصوا فى رمال الصحراء . ثم مايلبثون أن يعودوا اليك وأنت لاتتوقع عودتهم كأنهم أشباح لا تعوقهم مادة هذه الارض » .

ثم أرخى الليل سدوله ولم يأت بعد نبأ عن فعل تلك الاشباح المتحركة ، وطلع صباح اليوم التالى فاذا بالارض الشمالية على عهدها ليس فيها غبار ثائر ولا أشباح متحركة ، فكأنما كان منظر المساء الغابر من صور الخيال واختراع الوهم . الا أن زوال ذلك اليوم حمل الى الحصن بقية من جرحى قرية (أم دنين) التى على شاطىء النهر

(١) اريطبون قائد من كبار قواد الروم

(٢) وتيودور القائد العام لجنود الروم بمصر عند غزوة العرب

ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » .

***

أما بعد فلقد وفق امير المؤمنين عمر بن الخطاب كل التوفيق عند ما اتخذ هجرة الرسول من مكة الى المدينة تاريخا يحسب منه المسلمون سنيهم وأيامهم ، ويؤرخون منه احداثهم ووقائعهم . انه لا شك قد لحظ فى الهجرة انها بدء رسوخ الأسلام ، ولكننا نلحظ فيها فوق ذلك أنها كانت مظهرا رائعا لعناصر الحياة القوية النبيلة : حياة الألم والتضحية والاخلاص ؟

عبد الحميد العبادى

وقلا من مسلحة الحصن التي هزمها الجيش البدوى المغير . غير أن ذلك الجيش لم يبق بعد ذلك طويلا على الشاطىء بل عبر النهر واختفى فى الأفق الغربى . فتعجب القائد (جورج) عندما بلغه هذا ، وعرف أن قائده الذى وصف له حرب العرب كان يصفهم عن خبرة وعلم . لقد ظهر جيش العرب فى شمال الحصن كأنه شبح خيال ثم اختفى كذلك كأنه شبح خيال . ولكن متى يعود ؟ ومن أى جهة يطلع بعد عليهم ؟

تواردت الى الحصن بعد ذلك الامداد الكثيرة من جميع أنحاء مصر تعزيزاً لحصن الحصون الذى يدافع عن قلب البلاد مدينة (مصر) ، وأجاب قواد الاطراف على استصراخ (جورج) قائد الحصن بأن بعثوا اليه ما استطاعوا بعثه من الجنود المجهزة ليطردوا ذلك الجيش الذى لاح ثم اختفى . وتجهز المقوقس العظيم ليسير بنفسه من الاسكندرية الى مركز البلاد ، ليكون وجوده حافزا لهمة الجنود ، ولئلا يكون على مقربة من الاعداء لعله يستطيع بما أوتى من بلاغة وفكر أن يصرفهم عن البلاد .

ومرت الأيام سراعا وراجت الأخبار المتضاربة عن الغزاة ، وأتت بعض أنباء تلك الكتيبة الصغيرة من فرسان الصحراء ، فاذا بالقائد الشجاع (حنا) الذى كان معبود جيش الروم بالفيوم يقتل فى بعض المواقع منذ دفعته شجاعته للقاء جيش العرب . وترددت أنباء ذلك بين القواد والجنود فاذا هم فى حصن بابليون حلقات يتهامسون عن هذا العدو المغير ويتساءلون عن كنهه وحقيقة أمره ، وكان بين جنود الروم وقوادهم من رأى حروب الآفار والبلغار والفرس ، وكان منهم من قرأ أخبار الامم الماضية ممن أغار على دولة الرومان فى القرن الماضى من اللمبرديين والوندال والقوط . وما كان أفظع تلك الامم التى أغارت فى تلك القرون على أراضى الدولة الرومانية فقد كانوا لا يعرفون فى الحرب هوادة ولا رحمة ، ولا يخضعون لقانون خلق أو دين . فقد حكى عن (البوين) ملك اللمبرديين أنه هزم فى بعض حروبه قبيلة الجيدى وقتل رئيسهم والد (روزاموند) الجميلة ، ثم اتخذ تلك الابنة الجميلة زوجة له واحتفل بزواجه منها احتفالا وحشيا ، وجعل يشرب الخمر فى كأس جميلة — وأى كأس أجمل من جمجمة عدوه والد عروسه الجميلة ؟ حقا ما كان أفظعه وأفظع قومه ! ولقد دخل الوندال بلاد غاله ثم بلاد افريقية ، وكان الروم يعرفون مقدم هؤلاء الوندال بما يرتفع من لهيب النيران فوق آفاقهم . فكان هؤلاء الوندال يجتاحون بلادهم كما تجتاح العواصف والحرائق السهول الفيحاء فتتركها قاعا صفصفا ، أيكون العرب كبعض هذه الامم ؟

مضى أشهر ثم عادت كتيبة العرب من الافق الغربى فعبرت نهر النيل مرة أخرى ، وظهرت لرية الروم من خلال البساتين والكروم التى بين الحصن ومدينة (أون) ، وكان الروم قد اجتمعوا فى العدد والعدة فى حصنهم العظيم (بابليون) ، فما أسرع أن تدفقت جموعهم نحو الشمال لتحيط بتلك الكتيبة وتهلكها . وهل كان هؤلاء العرب ليقووا على صدمة جيش عظيم كهذا ؟

وقع الاصطدام أخيرا عند مدينة (أون) . وماذا دهى القوم ؟ فانهى إلا جولات ، فاذا جيش الروم يتردد فى سيره ، ثم إذا به يرتد نحو شاطىء النهر . ثم ها هى ذى كتيبة عربية تخرج اليه من شاطىء النهر كأنها تنقذف عليه من أعماقه . وهاهو ذا الجيش العظيم يتردد مرة أخرى ثم يتفكك ثم تتدافع جموعه نحو الجنوب يحاول كل فرد منهم أن يبلغ الحصن قبل أن تأخذه سيوف العرب اللامعة . ومرت الايام بعد ذلك فاذا بالروم قد دخلوا حصنهم وأغلقوا أبوابه الضخمة ، واذا بالعرب حول الحصن العظيم يتطلعون اليه ولا يدرون كيف يسمون فوقه . واراد المقوقس العظيم أن يعرف حقيقة أمر هؤلاء المغيرين لعله يعطيهم بعض مال فيرتدوا عنه ، فقال له أحد القواد : « دع عنك هذا فما هم بمن يأتى من أجل الذهب حتى اذا ما بذل لهم ذهبوا به عنا » وجعل يقص عليه قصته مع رجل (١) من هؤلاء العرب رآه يوما واقفا وحده يصلى ، فهبط اليه من الحصن مع جماعة من الروم ، فترك العربى الصلاة وأقبل اليهم كأنه الصخرة الثقيلة التى تنحدر من عل . لا يتردد ولا يلتفت الى شىء ، فهربوا منه حتى أنهم رموا اليه بمناطقهم الذهبية ليلهوه بها فلم يلو على شىء منها ، ولم ينجهم منه إلا أن بلغوا الحصن وأغلقوا بابه دونه ، ورموه بالحجارة من فوقه . فارتد ولم يلتفت الى تلك المناطق الذهبية ، بل عاد الى موضعه ليتم ما كان فيه من الصلاة وتركهم يخرجون من حصنهم لاسترجاع مناطقهم ثم يعودون على حذر

تعجب المقوقس العظيم ، وأراد أن يستطلع حقيقة الامر فبعث بجماعة من الروم رسلا الى قائد القوم فرأوا من هؤلاء المغيرين ما لا عهد للروم به من قبل . قال الرسل : « رأينا قوما ، الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . انما جلوسهم على التراب وأكلهم على

(١) هو عبادة بن الصامت البطل العربي المعروف

ركبهم ، واميرهم كواحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

لم يكن هذا شأن شعب من شعوب الهمج الذين افترسوا اطراف الدولة الرومانية . وهذه أول مرة يجتمع فيها الى الاستهانة بالحياة والشجاعة التى لا تعرف خوفا ، خلق متين ونظام لا ينفك منه أحد . ومن ذا يستطيع أن يقاوم شعبا اجتمع له هذان الوصفان ؟

كان أعظم ما يخشاه الروم فى مصر أن يعرف شعب مصر حقيقة هؤلاء العرب ، فلو أنهم عرفوا العرب لأمنوا اليهم ، ولو أمنوا اليهم لأصبح الروم ولو كثر عديدهم غرباء عن الارض قد فقدوا الناصر والتابع . غير أن شعب مصر لم يلبث أن عرف الحق واتصل بهؤلاء المحاربين ، فلقد كانوا فى سيرهم لا يسيرون سير الجيوش المغيرة المدلة المتكبرة المفسدة ، بل كان الطفل آمنا بينهم ، والمرأة لا يلحقها أذى من نظرة أحدهم . إذ كانت عداوتهم لجيش الروم لا لأهل مصر ، بل إن أهل مصر كانوا موضع وصية خليفتهم ووصية نبيهم الكريم ، ومنذ رأى أهل مصر ذلك صاروا حلفاء لهم على أولئك الروم الذين طالما طغوا وبغوا وظلموا وعسفوا وأحرقوا وعذبوا ولم يرعوا فى رعيتهم ما كان فى اعناقهم من أمانة . وما هو إلا عام حتى كان العرب على انتظار تسليم الاسكندرية ذاتها بعد أن دان لهم داخل البلاد .

وكان الحاكم العربى عمرو بن العاص لا يدع فرصة لتذكير جنوده بما عليهم من الواجب نحو أهل البلاد التى حلوا بها ، وكأنما به يتطلع بخياله القوى نحو ذلك اليوم الذى يمتزج فيه قومه الصحراويون بقبط مصر ، وينشأ من ذلك الامتزاج شعب جديد يقوم على انشاء مدنية جديدة . وقف عمرو يخطب فى قومه عند حلول الربيع وقت ذهاب العرب الى الريف ابتغاء أن يصيبوا من خيراته لأنفسهم ولخيولهم . وقال عند ذلك فى خطبته : « واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، وايا كم والمسومات المعسولات . . . حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم سهم صهرا وذمة ، فكفوا أيديكم وغضوا فروجكم وغضوا أبصاركم . . . »

ولقد سار العرب على وصية قائدهم الحكيم فلم يشك أحد من أهل مصر اعتداء على شرفه ولا انتهاكا لحرمته .

ولقد كان عمرو عفيفا فى حكمه عن العسف والخبط حتى لقد وقف فى وجه عمر بن الخطاب نفسه دفاعا عن سياسته المالية الرحيمة ، ثم عزل عن مصر فى أيام عثمان دفاعا عن تلك السياسة عينها . وكانت سياسة العرب على تقلب الايام واختلاف الدول مدى القرنين الاولين من بعد الفتح سياسة اعتدال ورفق ، تسمع ذلك مترددا على لسان أساقفة القبط الذين تركوا لنا فى دواوينهم ذكرا من تلك الايام .

قال أحدهم عند ما عاد بنيامين بطريق القبط آمنا بعد أن هرب ثلاثة عشر عاما من اضطهاد الروم : « الحمد لله الذى أنجاك من الكفرة (الروم) ، وحفظك من الطاغية الاكبر الذى شردك فعدت الى ابنائك تراهم ملتفين حولك مرة أخرى » .

ونقل عن بنيامين البطريق الأعظم للقبط انه قال يصف عودته عند فتح العرب : « كنت فى بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف ، واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (الروم) وبأسهم » « وقد فرح القبط كما يفرح الاسخال اذا ما حلت لهم قيودهم ، وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم » .

وقال الاسقف حنا النقيوسى : « لقد تشدد عمرو فى جباية الضرائب التى وقع الاتفاق عليها ، ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنائس ، ولم يرتكب شيئا من النهب أو الغصب ، بل انه حفظ الكنائس وحماها الى آخر مدة حياته » .

وقد ورد فى كتاب الأستاذ بتلر (فتح العرب لمصر) فى وصف دخول المصريين فى دولة العرب : « فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والاطمئنان ، وكانوا من قبل تحت نير من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم فى أمور الدنيا ، وأرخى من عنانهم . وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمر طليق » .

واذا كان قبط مصر قد دخلوا فى الاسلام أفواجا حتى صار الاسلام دين الكثرة فى البلاد ، فما ذلك إلا ميل الطبيعة نحو وحدة قوم هم بطبيعة حياتهم ذاتها لا يستطيعون الا أن يكونوا شعبا واحدا متجانسا . ولقد بقيت من القبط بقية عظيمة فى دلالتها ، عظيمة بما يجرى فى عروقها من دم مصر القديمة ، واذا كان دينها دين المسيح ، ودين سائر أهل مصر الاسلام ، فان ذلك لا يفرق بين طائفتين تجمع بينهما أسباب الحياة وأواصر الاخوة . وأن الاسماء إذا اختلفت ، والمظاهر إذا لاءم عليها شىء من التباين ، فان الدماء التى تجرى فى العروق ترجع الى منبع واحد وجرثومة قديمة

شهدت عصور ما قبل التاريخ ؟ محمد فريد أبو حديد